مشروعها الاستيطاني، الذي لم يكن يعقل أن تنجزه هي بقواها الذاتية، خاصة إذا أخذت بالاعتبار ظروف الزمان والمكان، فالزمان هو نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث التنافس بين الدول الاستعمارية على أشده، وغيوم تضارب المصالح الامبريالية تلبد سماء العالم، مما أدّى في نهاية الأمر إلى نشوب الحرب العالمية الأولى. والمكان هو فلسطين، بموقعها الاستراتيجي في قلب العالم القديم، الذي كان يشكل بؤرة اهتمام الدول الامبريالية. والصهيونية، بفعلها الذاتي، لم تكن لها مقومات الدخول في صراع العمالقة. ونظرة سريعة نلقيها على أسماء المشاركين في المؤتمر الصهيوني الأول (بازل ١٨٩٧)، تكفي لتثبيت القناعة بأن مثل هذه التركيبة لا قبل لها بطرح مثل المشروع الذي يدور الكلام عنه، إذا كانت تعتمد على ذاتها فحسب. من هنا، انصب التفكير الصهيوني، منذ البداية، على البحث عن شريك مناسب، يكون بالضرورة أحد المراكز الامبريالية الفاعلة. وهكذا، وضعت الحركة الصهيونية نفسها على «سكة» أوصلتها إلى حيث هي اليوم، وحكمت تطور مشروعها وصولاً إلى وضعه الراهن، حيث تغلب سمة الثكنة فيه على ملامح الدولة القومية. فالشراكة التي ضربتها الصهيونية العالمية مع المراكز الامبريالية كان لابد لها من أن تعكس موازين القوى بين الشريكين، وتكون بالتالي غير متكافئة، أي أن يكون أحد الشريكين هو الأكبر والآخر هو الأصغر. وهذه هي طبيعة العلاقة القائمة الآن بين اسرائيل، كشريك أصغر، والولايات المتحدة كشريك أكبر، في تجسيد المشروع الصهيوني بكل أبعاده.

وكان طبيعياً أن تفعل هذه الشراكة غير المتكافئة بين الحركة الصهيونية والمراكز الامبريالية فعلها في صياغة المشروع الصهيوني، بحيث تأتي متسقة مع تطلعات الشريكين ومتناسبة مع موازين القوى بينهما.

وهكذا، جعلت تلك الشراكة المشروع الصهيوني ذا شقين، أحدهما يهودي، يقوم على الوعي الصهيوني الزائف لـ«المسألة اليهودية»، وبالتالي الطرح الخاطىء لحلها؛ والثاني امبريالي، ينطلق من استراتيجية المركز الامبريالي الشريك لتجسيد مشروعه العام إزاء المنطقة. وبينما التقى الشقان على الخطوط العامة للمشروع المشترك، كان طبيعياً أن يفترقا في بعض التفاصيل وفي ترتيب جدول الأولويات في عمل المشروع. ففي حين أعطى الشق اليهودي الأولوية للاستيطان، على نية حل «المسألة اليهودية» بتهجير يهود العالم وتوطينهم في فلسطين، التي كان لابد من تهويدها، أرضاً وشعباً وسوقاً، كانت أولوية الشق الامبريالي من المشروع إياه التصدي لحركة الجماهير العربية وإحباطها للحؤول دون تحقيقها لأهدافها في الاستقلال والوحدة والتطور الاجتماعي. وكذلك أضفت تلك الشراكة على المشروع الصهيوني أبعاداً ثلاثة. ففي بعده الفلسطيني يرمي المشروع إلى تأمين القاعدة، سواء للاستيطان أو لآلة العدوان. وأمن الاستيطان يستلزم تهويد فلسطين، أرضاً وشعباً وسوقاً، ولذلك كان إجلائياً، واعتمد نهج تغييب الشعب الفلسطيني وصولاً إلى تذويبه. أما آلة العدوان، فهي تحتاج إلى قاعدة آمنة تنطلق منها لاداء دورها خارج رقعة الاستيطان. والبعد العربي للمشروع الصهيوني يتمثل في الدور الامبريالي لآلته العسكرية، والذي يرمي إلى المساهمة الفعالة في تطويع حركة الجماهير العربية